

شوارعها متألّفة لا تَفْطَعُ وَصْلاً مَعَ بَعْضِهَا، وَلَيْسَتْ وَاسِعَةً كَشَوَارِعِ الْمَدِينَةِ، وَسَقْفُهَا مِنْ أَقْوَاسٍ تَشْبَهُ أَقْوَاسَ مَسْجِدِهَا النَّصْرِ، كُنْتُ أَجْلِسُ تَحْتَهَا فَتَضُمُّنِي، وَتُعِيدُ لِي انْطِلَاقَ الْعَزِيمَةِ وَالْأَمَلِ. كُنْتُ أُنْعَثِرُ مِنْ حِجَارَةِ أَزْقَتِهَا الْبَارِزَةِ، فَلَمْ أَكُنْ أَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا بِنَظَرَاتٍ مُتَنَائِرَةٍ تُجَنِّبُ الْإِحْتِكَاءَ بِالْجِدَارِ الَّذِي أَذَابَ طَرَفَ حَقِيبَتِي الْأَيْمَنِ، وَبَسْطَةُ الْعَمِّ (أَبُو طَلَال) فِي آخِرِ الزَّقَاقِ وَأَسْمَعُهَا تَصْدَحُ بِصَوْتٍ "بابور" الكازِ الَّذِي يَصْرُخُ بِالْأَوْلَادِ مُعْلِناً قُدُومَهُ، نَاقِلاً بِضَاعَتَهُ بِعَرَبَةٍ مِنْ ثَلَاثَةِ إِطَارَاتٍ أَحَدُهَا تَالِفٌ - فَقَدْ أَصَابَتْهُ رَصَاصَةٌ طَائِشَةٌ فِي لَيْلَةٍ مَا - أَشْتَرِي مِنْهُ الذَّرَّةَ الْمَسْلُوقَةَ، أَوْ الْحَمَصَ الْمَسْلُوقَ بِالْكُمُونِ "البليلة". صُفُوفٌ مِنَ الْبُيُوتِ تَنَامُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فِي مَجَاهِلٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْحَيَاةِ، وَعَرِيَةُ الْعَمِّ (أَبُو طَلَال) بَعْدَ أَذَانِ الْعِشَاءِ وَأَحْيَاناً بَعْدَ الْمَغْرَبِ، وَلَا أَسْمَعُ إِلَّا أَصْوَاتَ الْقَطِطِ الْمُتَصَارِعَةِ فِي حَاوِيَةِ طَرَفِ الشَّارِعِ. يَبْدُو غَضَبِي بِالتَّزَايُدِ، وَيَشِقُّ النَّفْسُ أُمْسِكُ لِسَانِي عَنِ التَّذَمُّرِ عِنْدَمَا يَبْدَأُ أَبِي نِدَاءَاتِ النَّوْمِ الْمُتَتَابِعَةِ لِلْعَائِلَةِ بَعْدَ تَنَاوُلِ وَجَبَةِ الْعِشَاءِ، فَأَحْسُدُ دَجَاجَاتٍ جِيرَانِنَا لِأَنَّهُمَا مَا زَالَتْ "تُنَقْنِقُ" بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ، وَأَسْتَلْقِي فِي فِرَاشِي مُحْمِلاً فِي تَشَقُّقَاتِ السَّقْفِ الَّتِي تُشْبِهُ شَرَايِينَ الْجِسْمِ، فَتَجْمَعُ حَوْلَ "النَّوَاسَةِ" وَتَمُدُّهَا بِالْدَمِّ لِتُضَيِّءَ لَيْلاً، أَشْعُرُ بِأَنِّي أُعَانِي مِنْ مُتَلَازِمَةِ الشَّقَاقِ وَجَرِيَانِهَا، فَهِيَ أَكْثَرُ مَا يَلْفِتُ نَظْرِي فِي الْبَيْتِ وَالشَّارِعِ وَالْمَدْرَسَةِ وَكُلِّ مَكَانٍ، أَتَخِيلُهَا كَتَشَقُّقٍ بِبُضَّةٍ دِينَاصُورٍ سَيَخْرُجُ لِيَنْفُثَ نَارَهُ قَرِيباً. وَمَا يُحِيرُنِي ذَلِكَ "الشَّعْشَبُونَ" الَّذِي يَقُومُ كُلُّ لَيْلَةٍ بِالصَّاقِ بَيْتَهُ الْوَاهِنَ فِي زَاوِيَةِ الْغُرْفَةِ؛ وَتَقُومُ أُمِّي صَبَاحاً بِتَغْسِيفِهِ بِالْمَكْنَسَةِ؛ وَيَنْسُجُ خِيوطَهُ مِنْ جَدِيدٍ بِهَدْوٍ عَجِيبٍ. تَلَاظِفُ سِتَارَةَ الشُّبَاكِ سَرِيرِي الْخَشَبِي؛ لِتُسَلِّمَ عَلَى النَّائِمِ فِيهِ، لَكِنْ هُنَاكَ رَوَائِحُ أُخْرَى لَا تَفَارِقُ جِهَازِي التَّنَفُّسِي. لَسْتُ أَدْرِي لِمَاذَا يَفْتُلْنِي الْفَرْعُ كُلُّ لَيْلَةٍ؟ وَنَهْدَاتِي تَنْفُثُ بُخَارَ مَاءٍ مِثْلَ غَيْمَةٍ ضَبَابِيَّةٍ تُحَارِبُ أَطْيَافاً تُهَاجِمُهَا، فَأَنَا لَا أَعْلَمُ مَاذَا سَيَحْصُلُ إِنْ غَفَوْتُ! مَا إِنْ تُقْفَلَ رُمُوشِي أَبْوَابَهَا عَلَى الْحَيَاةِ، تَحُوطُنِي مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ الْأَسْلَاكُ الشَّائِكَةُ، فَتَمَزَّقُ مَلَابِسِي، وَتَتَنَائَرُ كُتُبِي فَوْقَ الْأَسْلَاكِ تَارِكَةً شَقُوقاً فِي جَسَدِي كَالَّتِي فِي سَقْفِ غُرْفَتِي، وَأَصْوَاتٌ مَجْهُولَةٌ وَبَعِيدَةٌ تَلْجِحُنِي طَالِبَةً مِنِّي الْعُودَةَ أَوْ الْقَفْزَ، وَالْعَنَكُوتُ يَنْسُجُ خِيوطَهُ كَذَلِكَ عَلَى السِّلَكِ الشَّائِكِ بَعْدَ أَكْبَرِ، مُلْتَمِثٌ يُنَادِينِي دُونَ صَوْتٍ، فَحَرَكَاتُ يَدَيْهِ وَرَأْسِهِ كَفَيْلَةٍ بِذَلِكَ، وَلَا أَعْلَمُ هَلْ انْطَبَعَتْ عَلَيْهَا، أَمْ أَنَّهُ تَغَلَّبَ عَلَيْهَا وَحَبَسَهَا فِي كُوفِيَّتِهِ! اثْنَيْنِ! لَا يَا حَجَّ، ثَلَاثَةً، نِدَاءَاتُ الْفَجْرِ مَعَ تَكْبِيرَاتِ الصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُ أَسْمَعُهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا أَصْوَاتُ مُقَاتِلِي الْحَيِّ الَّتِي امْتَزَجَتْ مَعَ الْأَذَانِ. اسْتَيْقِظْتُ مَعَ ذَلِكَ الشُّعُورِ الْحَادِّ فِي صَدْرِي لِأُقْتَشِ ذَاكِرَتِي عَنْ بَقَايَا حُلْمِي، كَالْمَوْجِ أَسِيرُ نُزُولاً "لِحَوْشِ" الدَّارِ، فَمَا زَالَ تَفْكِيرِي يَحْمِلُ خَوْفاً ثَقِيلاً مُشْتَبِئاً. أُحَاوِلُ لِمَلَمَّةٍ أَفْكَارِي، وَهَلْ أَبْدَأُ وَالِدِي بِالتَّحِيَّةِ أَمْ بِالتَّعْزِيَةِ؟ أَمْ بِنَشْرِ هُمُومِي بِجَانِبِ صَحْنِ الْفُولِ وَحَبَابِ الْفَلَّافِلِ، وَرَغِيفِ خُبْزِ الطَّابُونِ الْمُبَقَّعِ بِالسَّوَادِ؟ وَهَلْ أُطْفِئُ رَائِحَةَ النَّعْنَاعِ مِنْ إِبْرِيْقِ الشَّاي؟ هَلْ سَتَهَالُ عَلَيَّ عَشْرَاتُ الْمَوَاعِظِ الْأَبُويَّةِ الَّتِي أَحْتَرِمُهَا، وَأُكْتَسِي بِدَعْوَاتِ أُمِّي قَبْلَ الذَّهَابِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، أَمْ أَجْلِسُ وَأُلْقِي هُمُومِي كَمَا هِيَ لَهُمَا. أَسْأَلُهُ كَثِيرَةً تُعَبِّئُ تَفْكِيرِي وَتَتَرَنِّعُ رَجُلَايَ مِنْهَا؛ فَلَا أَقْوَى عَلَى السَّيْرِ أَحْيَاناً، كَمْ نَحْنُ أَشْيَاءُ هَشَّةٌ! أَهْرَبُ مِنْ أَحْلَامِي؛ لِأَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى وَالْمِلْمِ شَتَاتِي وَضَعْفِي كَمَنْ انْفَصَلَ لَحْمُهُ عَنْ عَظْمِهِ، وَأَبْحَثُ فِي أَعْمَقِ كَيْانِي عَنِ السَّبَبِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَسْتَمِرُّ بِالتَّفَكُّكِ. لَكِنْ هَذَا الصَّبَاحَ لَيْسَ كَغَيْرِهِ، فَقَدْ بَدَأَ الزَّقَاقُ مُعِثِماً أَكْثَرَ، يَنْتَشِرُ فِيهِ السُّمُّ الْأَبْيَضُ وَأَنَا فِيهِ كَجَنْبَيْنِ فِي رَحِمٍ وَاسِعٍ، وَلَمْ يَتَبَقْ لِي إِلَّا سَاعَاتٌ لَأَوْلَدَ مِنْ جَدِيدٍ. جَلَسْتُ وَصَدِيقِي عَلَى الرَّصِيفِ مُقَابِلَ الْمَدْرَسَةِ نَرَايَبُ دُخُولِ الطُّلَابِ وَتَرَدُّدِهِمُ الْوَاضِحَ، فَكَانَتْ هَمْسَاتُهُمْ مَسْمُوعَةً لِلْمُعَلِّمِ الْمُنَاوِبِ: الْيَوْمَ إِضْرَابٌ؟ وَمَجْمُوعَتُهُ مِنَ الطُّلَابِ بِأَصْوَاتِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمُ الْمُتَتَابِعَةِ الَّتِي لَا تَمْلُ التَّكْرَارَ، وَلَكِنْ مَلَامَحَ وَجْهِ الْمُعَلِّمِ مِثْلَ خَرِيطَةِ الْوُطَنِ، وَهَلْ جَفَّتْ دُمُوعُ عَيْنِهِ مِثْلَ بَحْرٍهَا الْمَيِّتِ؟ وَاحْتَلَّتْ الْأُخْرَى مِثْلَ طَبْرِيَا؟ يُوَزَّعُ عَلَيْهِمْ ابْتِسَامَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ مِثْلَ حَيَاتِهِمْ وَعَيْشِهِمْ وَدِرَاسَتِهِمْ، أَوْ يُعْطِيهِمْ جُرْعَاتٍ مِنَ الْأَمَلِ! وَخَرَجْنَا مِنَ الْمَدْرَسَةِ كَجَيْشٍ تَحَرَّرَ مِنْ ثُكُنَتِهِ، وَنَسِيرُ بِفَرْقٍ مُتَتَابِعَةٍ، وَكُلُّ مَنْ يَحْمِلُ جُعْبَتَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَبَعْدَ عِدَّةِ أَمْتَارٍ تَوَزَّعَتْ الْفِرَقُ، مَنَا عَائِدٌ إِلَى بَيْتِهِ، وَيَعْضُهُمْ وَقَفُوهَا مُتَفَرِّجِينَ لَا أَكْثَرَ. أَنَا وَصَدِيقِي أَهْمُ عُدْنَا إِلَى الْحَيِّ، وَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ لِأُصَلِّيَ الْعَصْرَ كَأَنِّي صَغِيرٌ كَنَفَرٍ لَا يَشْعُرُ بِالْأَمَانِ إِلَّا فِي جِرَابِ أُمِّهِ. وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا يَبْرُزُ آخِرُ كِتَابٍ فَتَحَهُ صَدِيقِي الَّذِي طَالَمَا تَطَبَّعَتْ حَيَاتُنَا مِنْ جِهَرِهِ، وَنَظَرْتُ إِلَى يَمِينِي مُخَاطَباً صَدِيقِي... يَتَفَقَّدُ جَسَدِي بِنَظَرَاتٍ عَيْنِيهِ، وَيَتَحَسَّسُ شَعْرَ رَأْسِي وَمَلَامَحَ الْاسْتِغْرَابِ لَا تَفَارِقُهُ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا لَمْ نَشَارِكْ فِي الْمَظَاهِرَةِ، وَلَكِنَّهُ صَدِيقِي الْعَطُوفَ، وَكَيْفَ جُرَحَ عَقْلُكَ يَا صَدِيقِي؟ مِثْلَ أَوْرَاقٍ خَرِيفٍ دَفَعَتْهَا مَوْجَةُ رِيَاكِ مَوْسِمِيَّةٍ مِنْ خَلْفِي، لَا أَفْهَمُكَ يَا صَدِيقِي. مَنْ الْأَوْرَاقُ! إِنِّهَا أَيَّامُ حَيَاتِي، وَلِيَالِي الْحَيِّ الْمُتَعَاقِبَةِ، إِنَّهَا رَائِحَةُ الْيَاسْمِينِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.... وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّوْمَ فِي حَيَاتِنَا لَيْسَ مُتَاحاً، فَهُوَ نِدَاءٌ يَطْرُقُ جُدْرَانَ قَلْبِي، وَأَنْ أَتَجَاوَزَ كُلَّ الْأَسْلَاكِ الشَّائِكَةِ فِي حُلْمِي. أَسْلَاكِ! حَلْمُكَ! مَاذَا تَقُولُ يَا صَدِيقِي؟ وَلَا يَعْلَمُ صَدِيقِي عَنْ ذَلِكَ الْمَلْثَمِ الَّذِي مَا زَالَ يُؤْشِرُ بِيَدَيْهِ وَيَحْتَنِي عَلَى التَّجَاوُزِ، وَتَجَاوُزِ الْحَيِّ وَتَعَثَّرِي فِي طُرُقَاتِهِ. لِأَنَّهُ حِينَ تَضِيقُ الْحَيَاةُ وَتَكْثُرُ الْهُمُومُ، تَتَدَاخَلُ الْمَشَاعِرُ وَالْأَفْكَارُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَرَاكُمُ فَوْقَ حَيَاتِنَا. لَقَدْ قَرَأْتُ يَا صَدِيقِي عِبَارَةً مِنْ وَصِيَّةِ شَهِيدٍ، "عَلَيْنَا أَنْ نَنْفَصِلَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَوْ لِلْحِظَّةِ وَاحِدَةٍ، أَوْ لَحْظَاتٍ قَصِيرَةٍ مُتَتَابِعَةٍ، بَلِ الْمَسْأَلَةُ كُلُّهَا، وَنَلْجَأَ إِلَيْهِ مُسْتَعِينِينَ بِهِ

فقط، أن نتوحد مع مسير نبينا صلى الله عليه وسلم، فلا عز لنا إلا به” ولكن المثلث في حلمي يبدو أنه يحفظ البوصلة بعيداً عن أي تشويه ويدرك الاتجاه عقيدة ومبدأ. من هو المثلث؟ لقد قلت أنت، المثلث! فكيف أعرفه؟ ولكنك ستعرفه أنت! كلنا يا صديقي قادرون على الكتابة والكلام، ولكن المدينة أصبحت للصوص السياسة والمال والقرارات، بلطجة الرأي حولتنا لمسخرة وطنية، فنداء “الله أكبر” أقوى من الكل. لأن جذورها في التربة غير المباعة! ولكننا في ضعف وهوانٍ وذلٍ منذ زمن... لو يعلم صديقي أنني أحتاجه وقت ضعفي؛ لأخبره عن حقيقة حالي، بعيداً عن تفاؤلي في كلماتي، ولكنني سأعتاد في النهاية، فقد تعلمت من تجارب الليالي أن لا بطولة واضحة ولا كاملة في مواجهة الأفاعي السامة الملتفة حول حيينا وحياتنا، وحتى طموحاتنا، ولم يبق لنا سوى ساعات من ليل نسمع فيها زئيراً مبشراً. أعلم يا أدهم، عندما نخر سلامهم أنياب قوتنا؛ واعتبروا سمهم مناعة لنا ضد موتنا! كنت في أحلامي أقف على مفترق طرق ضيق، حيث يتقاطع شارع الحارة مع شارع المدينة، وتختفي رائحة الياسمين بعد التقاطع، ولا أحد يتجاوزني هناك، وتجمد مخاوفي كأنها دخلت فصل شتاء قاسٍ، ويتعرق جبيني وتقوى رجلاي، ويخيم الصمت العميق على الكل إلا لساني لم يغلفه الصمت، وأدركت أن الذين يسرون في المدينة من كبار السن في الوطنية خذلهم مسيرتهم، ويحرقون كراسيهم إن جلس عليها غيرهم، ويلبسون أحذية من قماش تبطل إن وطئت أقدامهم شارعاً ويسرون مثل صقور نزع ريشها ويعيشون بكبرياء كاذب، فقد أصبحوا حمائم وديعة، يعيشون في حاضر مقلق وحوصير مستقبلهم بالأعيب نجسة، لا أعلم إن كانوا نادمين على ترك وجهتهم في الماضي معتقدين أنهم قادرون على إيجادها في المستقبل. الآلاف تمر من أمام المقهى، ومن الصعب تمييز الأطفال من الشباب وحتى الشيوخ، ما صرختهم؟ يا أدهم، صرختهم تكبيرهم في محرابهم، وصر صفوف أقدامهم مع أنفاسهم العالية. لقد هجروا المقهى، يسرون نحو المفترق نحو رائحة الياسمين ليزفوا شهيداً ملثماً هناك، وليترى طفل آخر على رائحة الحي ليكون شهيداً آخر. يبدو أننا يا صديقي نعيش زمن خطابات النهايات وأفعالها، لنحتمي بالأقواس والقباب، فهي عرين الصادقين المخلصين. لقد عدت إلى الحي دونه هذه المرة،